

اللاعقلانية الحداثية في منظور إدغار موران

Modern irrationality in the perspective of Edgar Morin

حميد عبيد¹، زكاري خليفة²

¹ جامعة أبو القاسم سعد الله - الجزائر 2، hamidabid380@gmail.com

² جامعة أبو القاسم سعد الله - الجزائر 2، khalidazakari@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2025/05/06 تاريخ القبول: 2025/06/16 تاريخ النشر: 2025/09/01

ملخص :

يتناول هذا المقال نقد الفيلسوف إدغار موران لللاعقلانية المتأصلة في الحداثية الغربية، ويهدف إلى استجلاء كيف أن الحداثية، التي انطلقت بهدف تمجيد العقل، لتتحول وفقاً لموران إلى لاعقلانية قائمة على الوثوقية والفصل المنهجي، متجاهلة الأبعاد الإنسانية والشعورية. توصلت نتائج البحث إلى تأكيد رؤية موران بأن الحداثية أسيء تطبيقها وفشلت في تحقيق وعودها الإنسانية، محولة الإنسان لآلة، ما يستوجب الدعوة إلى عقلانية جديدة تواصلية وتكاملية، وإحياء الفعل الثقافي والفني المرتكز على الوجدان. كلمات مفتاحية: إدغار موران، الحداثية العقلانية، اللاعقلانية، الثقافة، ابستمولوجيا التركيب، الدوغمائية.

Abstract:

This article examines philosopher Edgar Morin's critique of the irrationality inherent in Western modernity, as it aims to explore how modernity, which began with the goal of glorifying reason, has, according to Morin, transformed into an irrationality based on reliability and methodological separation, ignoring human and emotional dimensions.

The research findings confirm Morin's view that modernity has been misapplied and failed to fulfill its humanitarian promises,

transforming humans into machines ،which necessitates a call for a new ،communicative ،and integrative rationality ،a revival of cultural and artistic action based on conscience.

Keywords: Edgar Morin ،rational modernity ،irrationality ،culture ،epistemology of composition ،dogmatism.

*المؤلف المرسل: حميد عبید

1. مقدمة

كانت الفلسفة الأوروبية قبل الميلاد تعيش أزهى فتراتها خاصة بعد أن أنزل "سقراط" (469 – 399 ق.م) الفلسفة من السماء إلى الأرض – بتعبير الشاعر الروماني "شيشرون" (106 ق.م – 43 ق.م)، وأعاد التفكير في مسائل الوجود بواسطة العقل. وهو ما حدا حذوه فلاسفة آخرون حيث بعث "أفلاطون" (427 – 348 ق.م)، مقولة التجريد للماهيات وفعل "أرسطو" (384 – 322 ق.م) ملكة الصورنة لمبادئ حركة الفكر.

هذه الثورة في عالم الفكر تواصلت مع الفلسفة الرومانية مع الرواقيين والأبيقوريين واتجهت أكثر نحو فنون الحياة ووسائل العيش لينزل العقل المتفلسف من عليائه إلى الحسي ومن النظر إلى العمل وهو ما يمكن اعتباره إرهاباً أولياً لنهاية مجد الحكمة وبداية عصور التلقين، فكان نكوصاً في التفكير من حالة الإبداع إلى حالة الإكتفاء ومن الفعل إلى التلقي والاقتراء، وهي ميزة العصور الوسطى التي ميزها الركود وسيطرة الكنيسة لقرون عدة إلى غاية بدايات الثورة الصناعية التي كانت القاعدة العلمية للحدثة .

بعد خروج أوروبا من غياهب عصور الظلام الوسيطية انطلقت في التأسيس لمرحلة أخرى مختلفة بغية تغيير الواقع، وهي مرحلة الحدثة، جاعلة من العقل مركزاً للإنسانية تلتقي عنده وتنطلق منه شتى الرؤى خاصة في العلوم الإنسانية . إلا أن هذا النزوع إلى العقلنة تحول إلى لا عقلانية بئسمة مع مرور الزمن وذلك لوقوعه في فخ التقديس والثوقية وانطلاقه من أطروحة الواحدية والفصل، خاصة تلك التي بناها "ديكارت" (1596-1650م)، هذا ما أدى ببعض الفلاسفة إلى انتقاد نتائج الحدثة ومن بينهم «إدغار موران» (1921-Edgar Morin) الذي حاول تفكيك مقولاتها وتقديم حلول لتلك المزالق والمآخذ، فما المقصود باللاعقلانية الحدثية ؟ وما هي مآخذها؟ وما الحلول التي رآها بإمكانها تصحيح مسار النزعة الحدثية ؟

1. نقد "موران" لمآلات الحداثة :

سعى العقل البشري بما يميزه من روح فلسفية عبر الأزمنة إلى معالجة مشكلات الإنسان من الناحيتين الواقعية العملية والنظرية الصورية وما يعترضه من معوقات تؤثر على اهتماماته اليومية وقد تصل حد تهديد كينونته الوجودية. هذه الظروف المحيطة قد تأتي في شكل نزاعات وأزمات أو حروب تنال بدمارها الدويلات وتعيد تفكيك مفاهيم قيمة لطالما شكلت أساسا للأمم وحضارات ولما تحملها البنى والمنظومات الفكرية لدى الشعوب من ثقافات .

هذا التفكك سيؤدي إلى بروز مفاهيم جديدة في سياقات الرؤى الثورية وما يجد به الحال من نتاج مسار النزاع هذا وما يحصل من مآل؛ هذه المفاهيم قد يتقبلها البعض (صناعها، أصحاب عقيدة السيد، الأقوى)، وقد يرفضها البعض الآخر (عادة الطرف المتضرر أو الأضعف، العبد)، وهذا ما وقع بالضبط في نهايات الحقبة الوسيطية التي سادها العنف بكل أشكاله الرمزية والمادية، وظهور مصطلح الحداثة الذي ما فتئ يستقطب الدارسين وينظر له المفكرون والفلاسفة من حيث المبدأ والمنهج. فانبنى على تشييد صروح العقل من جديد بعد أن كان رمزا للحكمة في العصر اليوناني القديم، ووضع للذات مكانها ضمن حقل يشهد في الآن ذاته نزعة علمية تقول بالطبيعة وقوانينها. أما من حيث المنهج فقد جعل الشك أولوية والفكر الحر هدفا ورفض كل وثوقية تقوم على كل ما هو دوغما. فتلقفت العقول هذا المفهوم (الحداثة) وتلقته المطابع بالتقييد لأفكاره بطبعها رغم كل قيود التضييق الكنسية التي بقي لها بعض السلطان حتى تطور وتحول إلى تنوير متكامل الأسس، طال الأخلاق والتربية وحتى الإقتصاد، فظهرت مناهج جديدة في رأس المال النقدي، منها ما خصّصه ومنها ما عمّمه، فعرف الأول بالنظام الرأسمالي واصطلح على الثاني بالاشتراكية، لتنتهي - بعد طول صراع - إلى مرحلة سادها النظام الأشمل والقرار الأوحى بزعماء المعسكر الغربي وسيدته أمريكا التي علمنت العالم كله وأخضعته لسلطانها، ما رآه البعض عودة إلى الواحدية في المنطلق والسكونية في الأفق، التي لا تنبئ بتغيير أو ازدهار مبني على فكرة التواصل وروح التكامل وعرى التبادل. ومن بين هؤلاء الفلاسفة الذين انتقدوا هذا الواقع الذي آلت إليه ظاهرة الحداثة نجد الفيلسوف الفرنسي "إدغار موران"، إذ عرّف الحداثة بأنها: "قطيعة زمنية متكررة لإنتاج نسق جديد بمعرفته ووجوده وقيّمته، وبشرطه الإنساني والعقلاني، ويعد التطبيق العملي لها في حيز زمني هو الحداثيّة. (الخويلدي، الخضير، وآخرون، 2013، صفحة 135)

إن النقد الذي وجهه "إدغار موران" لظاهرة الحداثة والتي تلتها ظاهرة العولمة يكمن سببه في التناقض الذي وجده بين الأفكار الحداثيّة والتنويرية وهي أفكار نهضوية تحررية تخدم - على الأقل ظاهريا - الإنسان باعتباره الفاعل الأساس في هذا الوجود، وبين المنظر لهذه الأفكار، فهي نابعة

من المصدر ذاته وهو الغرب الإستعماري، لذلك رأى "موران" أنه من الصعب على محتل مغتصب أن ينظرو ويؤسس لثقافة التسامح، يقول : "إن المفارقة في هذه الحقبة من التاريخ الإنساني القاسية جدا هي أن هذه الأفكار بوصفها أفكارا استنهازية كان مصدرها دائما بلدان الهيمنة نفسها". (موران و بودريار، عنف العالم، 2005 ، صفحة 74)

وقدم لنا أمثلة تاريخية وواقعية عن هذا التناقض الثقافي والحضاري لدى العقل الغربي، فيمكن للرجل الأبيض أن يصدر حكمه على سكان الجزء الآخر من المعمورة دون أن يراهم، فيمنح لنفسه حق الحكم على الآخرين بالفساد أو الصلاح دون أي معرفة بهم ولا بأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم، وهذا ناتج عن عقدة التفوق التي سيطرت على الأوروبيين وجعلت حتى مثقفهم يعترفون بهذه الحقيقة، ف"مونتسكيو" يعترف بالنظرة غير المؤسسية والمزاجية التي ينظر بها الأوروبيون إلى الفرس مثلا غير واضعين في حسابهم أن الآخر أيضا قد تكون له النظرة نفسها عن الأوروبي وهذا كله نتيجة الإستعلاء الذي وقعت فيه الحضارات في صداماتها، يقول "موران" : «توصل "بارتلمويوسلاسكازاس" وهو كاهن إسباني إلى إقناع الإكليروس الإسباني بأن هنود أمريكا أناس طيبون، وإنهم كائنات بشرية، بالرغم من أن المسيح لم يصل إلى البقاع الأمريكية، ويؤكد "مونتانيه" بأن حضارتنا ليست بالضرورة متفوقة (موران و بودريار، عنف العالم، 2005 ، الصفحات 74-75)، ولهذا الآخر الحق كل الحق في رؤيته النقدية للغرب، فالتطور الذي أفرزته الحداثة بشقيها العلمي الذي جسده الثورة الصناعية والتقنية في أوروبا وكذا العقلي الذي جعل أفكارا ونظريات ومذاهب تسود وترقى إلى مرتبة الحقائق المطلقة التي يمكن لها صناعة التاريخ وتوجيه أحداثه – لم يبلغ ما كان سائدا من قبل من وحشية واستعمار، بل صار الإنسان الخطر الأكبر على الإنسان، أكثر مما تشكل الطبيعة من أخطار ومصاعب، إذ وبعد أن كان الإنسان يخشى الطبيعة، صار يخشى نفسه وبني جنسه، لقد "تعلمنا من درس هيروشيما أن العلم سلاح ذو حدين : إذ شاهدنا كيف تراجع العقل وكيف أن الهذيان الستاليني اتخذ قناع العقل التاريخي" (موران، تربية المستقبل (المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل)، 2002، صفحة 65)

إن الأمل في رؤية واقع أفضل بالنسبة للبشرية جمعاء بفعل ما قدمته ظاهرة الحداثة من حمولة معرفية ومفاهيمية – ثقافية وسياسية – اصطدم بحال آخر مختلف ومناقض تماما للموقع المأمول ف «التقنيات التي أنتجها الإنسان، مثلها في ذلك مثل الأفكار قد ارتدت ضده» (موران، ثقافة أوروبا و بربريتها، 2007، صفحة 07)، وشعارات الرفاه والطمأنينة بقيت حبيسة أوراق الكتب ومدارج الجامعات ومكاتب الوزراء والحكام، أما المواطن العادي فقد وجد نفسه يصارع لأجل الحياة، يصارع مبادئ حداثية يبدو أنها ماتت لأنها بقيت مجرد نظر لا عمل حسب "موران"، ف

«حضارة الرفاهية يمكن أن تكون في نفس الوقت سببا في الشقاء، إذا كانت الحداثة تتحدد بما هي إيمان غير مشروط بالتقدم في مجالات التقنية والعلم وفي التنمية الاقتصادية فبإمكاننا القول إن هذه الحداثة قد ماتت" (موران، تربية المستقبل (المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل)، 2002، صفحة 65).

لا زالت البشرية تعاني من الأزمات التي انجرت عن الحداثة وعصر الأنوار ولا يبدو أنها ستخرج من عنق هذه المعاناة أو أنها ستحقق أماني 1789 م، فنحن لسنا بالقرب من قمة الشاطئ، تلك القمة التي تمنحنا متعة الإستمتاع بأطياف الشمس المشرقة وجمال منظرها. ولم يزامن وجودنا تلك "اللحظة التي ستحقق فيها وعود عصر الأنوار" (Edgar M. , Où va le monde ?, 2007, p. 67) العصر الذي نعيش فيه تتقاذفه الأزمات المختلفة الناتجة عن إخفاق الحداثة في تجسيد مبادئها وانحرافها عن رسم مسارات معالمها بتخليها عن العقل الجامع والفكر الكوكبي وثقافة التقدم والسعي إلى ثقافة الإقصاء والقتل والتوحش واللاعقلانية ، نحن في واقع يشبه اللعبة التي لا توقع يحكمها، فقد يكون مآل البشرية التقهقر كما قد يكون المآل تقدما، المستقبل مجهول مادام مبنيا على حاضر ارتياحي، «ولا ندري ما إن كانت هذه المعاناة التي دخلنا فيها هي معاناة ولادة الإنسانية أو موتها" (Edgar M. , Où va le monde ?, 2007, p. 67)

2. الثقافة الحداثية : من شعارات الروح إلى واقع الآلية وترويج المكدس:

انتقد "إدغار موران" الثقافة الحداثية التي أفرغت العمل من كل مضامينه الرسالية والروحية والعاطفية، كونها أهملت بالمقابل جوهر الإنسان الفرد، المبدع والخلاق. فإذا كان الإنسان القديم العامل قد أنتج رغم عدم توفر الإمكانيات فإن إنسان الحداثة وما بعدها ميزته العطالة والبطالة رغم وجود كل وسائل الراحة، ومرد ذلك هو اعتماده الكلي على الآلة التي استعاض بها عن كل ما يمكنه القيام به فأصبح اهتمامه منصبا على الراتب والإضرابات والمطالبة بالحقوق على حساب الواجبات أكثر من دوره الحقيقي كعامل، إذ "غدا العمل مع المكننة المتزايدة أقل مشقة جسديا ولكنه يفرغ مع التخصص المتزايد من كل جوهر شخصي" (موران، روح الزمان (العصاب)، 1995، صفحة 97). وهذا ما رآه "موران" نقيصة في العقل الحداثي، الذي جاء في الأصل بمبادئ تعتبر في جوهرها خادمة للإنسان ومعيدة لاعتباره، لكنها بقيت – في حقيقتها – مجرد شعارات عجزت عن تجنيب هذا الكائن مخاطر النزعة الآلية التي أصبحت مسيطرة في القرون الأخيرة

وصارت مصطلحات "النقد" و"رأس المال" و"البورصة" أهم من مفاهيم "السعادة"، "الخير"، "الحرية"، "الإرادة" ... الخ، فهذه المفاهيم قد تم إلغاؤها لفائدة مفاهيم مادية براغماتية لا تنظر في الإنسان إلا جهده وعمله.

3. مفهوم الثقافة وارتباطها بالجانب الاجتماعي :

الثقافة بمعناها الواسع تتعدى الفكرة إلى الممارسة، وتتجاوز النظر إلى العمل، هي كل ما ينشئه المخيال الاجتماعي والفردى معا، من إبداعات فنية وجمالية وأدبية ومن نظم ومحددات وقواعد عقلانية ومناسك تعبدية ودينية، تتألف فيها ملكات الأنا مع الآخر ومكتسبات مجتمع مع آخر، تبرز فيها العلاقة بين الجانبين الثقافي والاجتماعي، أي أن الثقافة موجودة في كل المجتمعات ولا مجتمع دون ثقافة، فلن نجد مجتمعا دونما فنون أو طبوع موسيقية غنائية وأشعار يتغنى أصحابها بجماليات الحياة وكذا ظروف العيش، كما تحتوي جميعها على مظاهر عقلانية ودينية، «وتقنية وسحر وطقوس وعبادة، وكان القربان (من البشر والحيوان) سمة بارزة لثقافات الماضي، وثمة عبادات مازالت تمارسه. وحتى عندما اختفى بشكله الطقسي الديني، بقيت فكرة القربان قوية جدا في ذهننا وهي تشكل ربما واحدة من السمات النفسية – العاطفية العامة» (Edgar M., 2003, p. 77) La méthode; L'humanité de l'humanité : l'identité humaine, فالمعرفة على وجه العموم والثقافة خصوصا ليست قائمة على مركزية الأنا فحسب بل هي «معرفة لدى فاعل يحمل في ذاته أيضا مركزية النوع والعرق والمجتمع» (Edgar M., 2012, p. 29).

وفي مفهومه للثقافة، جعلها "موران" الفيصل بين الإنسان والحيوان، فمجرد امتلاكها يخرج الإنسان من دائرة الحيوانية، لأنها قدرة على التغيير الواعي والقصدي، وهذا لا يتأتى إلا لعاقل وشاعر، وهي فعل وانفعال إيجابي، فقد تكون إبداعا من عدم كما قد تكون تلقي واكتساب من الأولين كالعادات والتقاليد ويمكن أن تكون أيضا قيما معيارية لأجل ما ينبغي أن يكون أفضل وأكثر ضمانا للعيش البشري، وحضورا راهنيا للتكيف مع كل ما يستجد بما أن أهم خصيصة في المثقف هي الإطلاع ومرونة التكيف ولذلك اعتبرها "أول رأس مال إنساني وبدونها يصبح الكائن البشري من اللبائن الدنيا في آخر السلم" (Edgar M., 2003, pp. 44-45).

ربط موران مفهوم الثقافة بمدى أو كيفية فاعليتها، فهي خاصية إنسانية فريدة، فإن لم تغير من طبيعة تفكير هذا الكائن العاقل لم تعد ثقافة ولن يحقق إنسانيته بفضلها، إذ أنها تنهى وتأمّر.

تنهى عن المخاطر والردائل وتأمربالفضائل وبكل ما من شأنه خدمة الفرد والمجتمع، يقول "موران":
"الثقافة توجه، تنمي، تدجن بعض الإمكانيات البشرية وتكف أخرى أو تحرمها" (موران، روح الزمان (العصاب)، 1995، صفحة 13). كما جمع بين مفهومى القدوة والذاتية فيها، فبنى العقل المفرد تتشكل وفق خط عمودي تاريخي تتوالد فيه القيم من جيل إلى جيل، من جيل القدوة إلى جيل المتلقي المنفعل، وهنا يتقبل المتأثر ماضي الأسلاف كيقين ينزرع في ذاته فيحافظ على الثابت وينمي ويطور ما ينبغي أن يغير وفق رؤاه ورغباته الشخصية وميولاته العاطفية لتظهر هنا مقولة الذاتية. فإن بدا جليا أن للثقافة جانبا أسطوريا رمزيا إلا أنه لا بد له من علاقات عقلية ووجدانية يبنها عقل الفرد المتلقي، ما دام «الإنسان يقطن الأرض بشكل شاعري» (موران، نحو سياسة حضارية، صفحة 45). وهذا هو الجانب الذاتي في الثقافة حيث تشكل لنا الثقافة «جسما معقدا من المعايير والرموز والأساطير والصور التي تنفذ إلى الفرد في خصوصيته وتبين الغرائز وتوجه الإنفعالات. ولكن هذا الولوج يجري وفق علاقات إسقاط وتماه عقلية مستقطبة على رموز الثقافة وأساطيرها وصورها كما هي مستقطبة على الشخصيات الأسطورية أو الواقعية التي تجسد قيمها (الأسلاف، الأبطال، الآلهة" (موران، روح الزمان (العصاب)، 1995، صفحة 13).

ورأى أن للثقافة أوجه متعددة ومختلفة، إذ تتجلى في مناحي عدة، سواء على مستوى المفاهيم أو الممارسات، وأول هذه الأوجه هو الوجه القومي، فعقل الصبي يتشبع منذ الطفولة بحكايا الأبطال وروايات المؤرخين التي تمجد ماضي الأمة ورموزها فينشأ ويكبر على أغاني وكلمات الوطن والفداء والتضحية كمجسدت عملية للوطنية، تتماهى فيها قيم الإنتصار مع الوطن باعتباره جسما غير مرئي "يتخذ عبر قرون من المحن والإنتصارات وجهها أميا (الوطن الأم الذي ندين له بالحب (و أبويا) الدولة التي ندين لها بالطاعة" (موران، روح الزمان (العصاب)، 1995، صفحة 13). أما ثاني أوجهها فهو الدين، فالإنسان حسب "موران" يميل إلى ثقافة التدين وتقديس الآلهة، إذ أثبتت البحوث التاريخية وعلم الآثار وجود «مدافن حقيقية ليست للوقاية من عفونة روائح الأجساد البشرية بعد أو أثناء تحليلها ولكنها كانت حفائر تم حفرها لوضع القرايين" (موران وشريف، تحديات القرن الحادي والعشرين (تواصل المعارف العلمية)، 2001، صفحة 542)، ويتجلى البعد الديني في علاقة الإنسان بالله والتي تقوم على ثقافة نكران الذات والإعتراف بالخطيئة، وعلاقته برجال الدين الذين جعلوا من أنفسهم وسطاء بين البشر والآلهة، ففي نظره «تقوم الثقافة الدينية على التماهي مع الإله المخلص ومع الشراكة الأمية – الأبوية التي تؤلفها الكنيسة" (موران، روح الزمان (العصاب)، 1995، صفحة 13).

4. أهمية الثقافة وابستمولوجيا التركيب :

تكتسي الثقافة الأهمية الكبرى بالنسبة للبشرية من خلال الجانبين : المعرفي والأونثروبولوجي، فهي تسهم في بعث العلوم المساعدة على النماء وهذا ما نجده في التواصلية بين العلوم حيث كل نظرية تأخذ من النظريات السابقة، كما تضع محددات ذات أبعاد روحية لضبط السلوك البشري، «إذ تجمع كل ثقافة في داخلها رأسمالين : رأس مال معرفي وتقني، ورأس مال ميثولوجي وطقسي (المعتقدات والمعايير والممنوعات والقيم" : Edgar M. , La méthode; L'humanité de l'humanité : l'identité humaine, 2003, p. 193).

لقد ساهمت الثقافة في بناء الحضارة، فمظاهر الحضرة والتطور التقني والتوسع العمراني والبشري كلها كانت بفضل الثقافة، فكل نمو إنساني هو فكرة، فأصبحت الثقافات تنزع نحو التطور بفضل الابتكارات الحديثة وتبني المكتسبات المحققة ووضع الأطر التنظيمية للمجتمعات فتحوّلت بفضلها من مجرد تجمعات تقليدية صغيرة إلى أمم كبيرة وإمبراطوريات «وتطور الأفراد تطورا عقليا وذهنيا ونفسيا وعاطفيا داخل تلك الثقافات والمجتمعات" (Edgar M. , La méthode; L'humanité de l'humanité : l'identité humaine, 2003, p. 45).

أما بالنسبة للمنهج الذي تناول من خلاله "موران" موضوعه "الثقافة" فقد طبق منهج التعقيد والتركيب على نظريته في المسألة الثقافية، حيث رأى أنها ذات سمتين متناقضتين لكنهما متكاملتين في الآن ذاته، فهي ثابتة / راكدة من حيث محافظتها على رمزيّتها وقدسيّتها ومكوناتها التراثية، ولكنها بالمقابل منفتحة / متغيرة، تراعي تطور المجتمعات ومتطلبات التحديث (Edgar M. , La méthode; L'humanité de l'humanité : l'identité humaine, 2003, p. 194) أي أن انبثاقها على مبادئ ثابتة وقيم وأفكار تناقلتها المجتمعات وحافظت عليها كروى مرجعية تتعاقبها الأجيال لا يلغي سمة التغيير فيها وقبولها لفكرة الآخر وتجاوزيتها معه .

وتتجلى ابستمولوجيا التعقيد والتركيب عنده كذلك في الترابط التبادلي للجانبين العملي والتخيلي في التلقي الثقافي، فالجانب العملي يوفر المادة المعرفية التي يصنع من خلالها الفرد قوالبه التخيلية، بينما يهتم الجانب التخيلي بإشباع وتحفيز إمكانيات هذا الفرد باعتباره فاعلا يسعى لتغيير واقعه وصناعته انطلاقا من مدى تشبثه وتأثره بالأبطال والأساطير الذين يراهم كقدوات يحذو حذوها، يقول : «إن الثقافة توفر نقاط استناد خيالية للحياة العملية ونقاط استناد عملية للحياة الخيالية، فهي تغذي الكائن النصف واقعي والنصف خيالي الذي يفرزه كل فرد داخل ذاته ويتغلف به". و من المبادئ التي بنى عليها منهجه مبدأ رفض منظومة "التبسيط" وهذا ما جعله ينتقد الثقافة

القطعية القائمة على "الإختزال" والتي تتأتى في صورة تفاسير راديكالية في مختلف المجالات والعلوم ففي مجال الاقتصاد مثلاً انتقد ما يمكن أن يسمى بوهم الرأسمالية والإشتراكية معاً، أي أن علماء الإقتصاد والمال عجزوا عن التنبؤ بما سيحدث مستقبلاً، حيث بنوا توقعاتهم على نجاح هذه الأنظمة إلا أن الوضع اختلف تماماً ودخل العالم كله في أزمت، وهذا دليل على الإحتمالية وزوال الثبات. «لقد كان الإتحاد السوفيياتي ينبئ عن مستقبل مشرق، والغرب كان يشهد بشدة تطور المجتمعات الصناعية. هذا الإعتقاد تبدد، مؤكداً لا مصداقية المستقبل» (موران و بودريار، عنف العالم، 2005، الصفحات 76-77)

5. علاقة الثقافة بالحدائفة :

بعد تحليلنا للجانب المفهومي للثقافة يمكننا القول أن الأصل في العلاقة بين الثقافة بالحدائفة أنها علاقة اندماج وتكامل، وذلك من الجانب البدني والتأسيسي على الأقل، فالمجتمعات الحدائفة هي مجتمعات ثقافية، وما تزخر به المكتبات والمسارح لدليل على ذلك، كما أن ثقافة الإنسان الحدائفي مختلفة عن العصور السابقة بالقدرة على التغيير وسبب ذلك هو التقاء المناهج المتعددة في المدرسة الواحدة وبذلك تلقيها للطلاب جميعاً مما ينتج عقولاً مختلفة وينمي أكثر حس التعدد وثقافة الإنفتاح على مختلف الأفكار وعدم التمسك بطقس واحد أو مذهب واحد، «فيمكن للفرد نفسه أن يكون مسيحياً في صلاة الصباح وفرنسياً أمام نصب الموتى قبل أن يذهب مساء لمشاهدة مسرحية "لوسيل" في المسرح الوطني الشعبي ويقرأ جريدة "فرانس سوار" ومجلة "باري ماتش" (موران، روح الزمان (العصاب)، 1995، صفحة 14)، إلا أن سائحة التواصل والتجاوز هذه لم تحدث على نطاق إنساني شامل ودائم بل شهدت مساراتها تقدماً مريحاً مؤنساً في بعض مراحل تشكل الوعي بكيئونة الآخر وتأخرها وتآزماً في حقب أخرى كثيرة .

6. تجليات اللاعقلانية والرفض الموراني لها :

للعقل مزلق ومطبات، وله مأخذ وانحرافات، هي ما أسماه "موران" بالأوهام، فكل عقل يتوهم أنه على صواب مما يؤدي إلى النزوع نحو الدوغمائية وإقصاء الآخر المختلف باعتباره شراً يجب عزله أو القضاء عليه، وهذا سبب انحدار العقلانية الحدائفة وسقوطها في فخ النرجسية

والإنغلاق على الذات وتبرير ما لا يبرر، وذلك كله خوفاً من تحمل المسؤوليات الأخلاقية والقانونية والمحاسبة أمام التاريخ، «فالتمركز على الذات والحاجة إلى تبرير الذات والنزوع إلى اعتبار الآخر مصدر الشر، كلها أمور تدفع الفرد إلى الكذب على ذاته» (موران، تربية المستقبل (المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل)، 2002، صفحة 23)، محاولاً إقناع نفسه أنه بريء.

هذه النمطية في التفكير هي نوع من اللاعقلانية التسلطية التي تصبح «القوة الأمرة الناهية وتلجأ إلى براديغمات وإلى معتقدات رسمية ومذاهب سائدة وحقائق قائمة تحدد القوالب المعرفية الجاهزة والأفكار المكتسبة دون تمحيص والمعتقدات الغبية التي لا تناقش» (Edgar M., 2012, p. 38).

إذ تكمن مشكلة اللاعقلانية الحديثة في تقديس الوعي بالفكرة وتنميط التفكير وهنا نجدها قد وقعت في تناقض مع ذاتها، فهي التي كانت تؤثت لمقولة النقد، ها هي تقع في فخ التقديس وكأنها لم تنتبه إلى أن تاريخ العلوم والثقافات يخبرنا بأنه «لا يمكن بناء المعرفة من دون احتمال ارتكاب الخطأ» (موران، دروس قرن من الحياة، 2022، صفحة 122)، فالقابلية للخطأ موجودة في كل زمان ومكان وكل البشر عرضة لها، ولهذا لا يجد "إدغار موران" أي مصوغ ذهنية الثبات وادعاء العصمة، إذ يرى بأن «احتمال وقوع الخطأ والوهم وارد على الدوام في كل حياة إنسانية وشخصية واجتماعية وتاريخية، وفي كل قرار وكل فعل، لا بل وفي كل استكشاف، وأنه يمكن أن يؤدي إلى كوارث» (موران، دروس قرن من الحياة، 2022، صفحة 118).

ثقافة الإنغلاق تلك - حسب موران - هي العامل الأساس الذي يجعل الفرد عاجزاً على رؤية الصواب في أفكار الغير وهذا ما يبقيه يراوح جموده وينأى بنفسه عن إعادة تطوير ذاته، إذ أن أنظمتنا الفكرية المشككة من نظريات، مذاهب فلسفية وأيديولوجيات، تحاول دائماً التستر على نقائصها وذلك بالعمل على حماية أخطائها. إن المنطق الداخلي لكل نسق فكري يقاوم كل فكرة أو مبدأ لا ينسجم مع اتساقه، وهذا الأمر ليس حكراً على الجوانب الفلسفية فقط بل تعداها حتى إلى العلم، فمع أن نظرياته «هي الوحيدة التي تقبل الخضوع لامتحان الدحض إلا أنها غالباً ما تقاومه» (موران، تربية المستقبل (المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل)، 2002، الصفحات 23-24).

صحيح أن العقلانية هي نموذج حداثي تنويري أسهم في إعادة بناء الفكر الإنساني وتطويره إلا أنها قد تكون سلبية من حيث تأثيراتها إذا ما حولت نفسها إلى نمط تحكمه المبادئ وتهميه النتائج ذاتها دونما حاجة إلى تغيير أو تطوير، فتنحول إلى "لاعقلانية" تحمل في طياتها احتمالية الزلل إذا أوقعت نفسها في وهم التبرير العقلاني الذي يدعي العقلانية المنطقية المؤسسة على منهجي الإستنتاج

والإستقراء رغم عدم إمكانية إخضاعها للأحكام الصورية المنطقية أو النظريات العلمية التجريبية وذلك لفقدانها خاصيتي المنطقية والتجريب بما أنها مجرد أوهام أتت على العقل الحديث (موران، تربية المستقبل (المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل)، 2002، صفحة 24)، ولهذا يمكننا القول أن أجلى تمظهرات اللاعقلانية هو احتكار العقلانية، وادعاء الصواب، «فالإنسان المفكر ذو الذهن العقلاني يمكن أن يكون في الوقت نفسه قادرا على الهذيان والحمق» (موران، ثقافة أوروبا و بربريتها، 2007، صفحة 5)، واحتكار التاريخ واحتكار العلم واحتكار الصواب هو السلوك اللاعقلاني الذي انتقده موران ورأى أن الغرب قد وقع فيه لما ظن أنه حامل الحقيقة الوحيد وحارس العقلانية، راميا صفة التخلف على باقي الحضارات والثقافات"، إلا أن واقع الحال يثبت أن الأمر ليس كما يراه الغرب، فـ "في كل مجتمع، بما في ذلك المجتمع البدائي نجد حضورا قويا للعقلانية في طريقة صياغة الأدوات وتقنيات الصيد ومعرفة النباتات والمحيط – بموازاة الأسطورة والسحر والدين" (موران، تربية المستقبل (المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل)، 2002، صفحة 25).

ويرفض "إدغار موران" كل صنوف التمسك بالجهاز والمغالبة في الدفاع عنه، لأن تشكل القوى الضاغطة والميتة من شأنه إضعاف مختلف قوى الحياة والفاعليات المتحركة، فتتقوى المذهبية والراديكالية وكل ما هو ستاتيك على حساب دينامية الذهن ونمو الذكاء وذلك «بفرض القوة الإلزامية للمقدس والقوة الضابطة للمعتقد والقوة التحريمية على الجميع" (موران، تربية المستقبل (المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل)، 2002، صفحة 28).

فالنزعة المحافظة هي نزعة تقول بالثبات ولا تصل بالإنسان ولا بالمجتمع ككل إلى الأفق الحضاري والثقافي المؤسس على مقولة "الحرية" بما أنها حاملة للحمية في ثنايا منظوماتها، يقول "إدغار موران" : «وراء المحافظة المعرفية يختبئ إذن استطباع ثقافي يضخ المحافظة في قلب الأشياء ويقصي كل ما من شأنه أن يحتج على البنية المهيمنة أو يهددها" (موران، تربية المستقبل (المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل)، 2002، صفحة 28).

ومن المبررات الفاعلة لهذه الأقنومية الخطيرة هو ما أسماه بـ "الإستطباع الثقافي"، وعنى به الطباع الأولى والأولية التي تنغرس في الذهن من حب للقضاء على الآخر ولتملك وللسيطرة، ليبقى بذلك ملازما للمنطق البشري في كل مراحل العمرية – إن لم يتم التغلب عليه بالتححر والعقلنة والسعي إلى الكوكبية والتواصل. فهذا النمط والضيق هو نتاج اللاعقلانية الحداثية وأبرز سماتها، و"هكذا فالإنتاج السوسيولوجي والثقافي للأفكار لا يقوم على الحقيقة إلا نادرا. أكثر من ذلك، قد يقضي

على البحث عن الحقيقة" (موران، تربية المستقبل (المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل)، 2002، صفحة 29).

7. ما هي الحلول لمواجهة اللاعقلانية الحدائية؟

أما عن الحلول التي يقترحها "موران" لمواجهة تحديات اللاعقلانية الحدائية فهي العودة إلى المعنى الحقيقي لمفهوم العقلانية، فهي – في الأصل- حماية للفكر ودرع وحصانة للمعرفة وذلك إذا ما كانت منفتحة على النقد من جهة وأدركت مكامن العلاقات بين الأنساق ومدى تأثيرها في بعضها البعض، إذ رآها على نوعين، عقلانية بنائية يراعى فيها التوافق المنطقي الإستنتاجي والإستقرائي، أي تراعي إنطباق الفكر مع نفسه ومع الواقع التجريبي، وعقلانية نقدية تحرص على دراسة المعتقدات وتصويب المتهافت منها (موران، تربية المستقبل (المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل)، 2002، صفحة 24).

هذه الثنائية الضدية / التكاملية (الفاعلية والإنفعالية) تجسدها المتلقيات الذهنية التي يستقبلها الذهن وتؤثر في السلوك وتساعد على الإندماج، فهي – وإن كانت بمثابة القهر الإجباري الذي يمارسه الآخرون على حرية الفرد في اتخاذ مواقفه بمسؤولية وإرادة، إلا أنها في الواقع دليل له على حقيقة سيرورة هذا النسيج المعقد للعلاقات الاجتماعية، مما يمنحه القدرة والإمكانية على اتخاذ المسلك القويم والتصرف الرشيد لبناء حاضره ومن ثمة مستقبله على أفضل صورة، يقول : «تمارس تأثيرها في عمل الدماغ وتكوين الذهن ويتدخل على هذا النحو لينظم بالشراكة مجمل الشخصية يتحكم بها ويجعلها متحضرة، وعليه فإن الثقافة تستعبد الفرد وتمنحه استقلاله في الوقت نفسه" (Edgar M. , La méthode; L'humanité de l'humanité : l'identité humaine, 2003, p. 195).

وشخص الوجه الثالث (و هو ثاني الحلول) في الوجه الإنساني للثقافة والذي تجسده الإبداعات الفنية والعلمية والأدبية والجمالية التي تروي بطولات القدماء بما تمثله من حمولة رمزية تشكلها الأعمال المسرحية والرؤى الفكرية للأجيال السالفة ومجمل «تدفقات الشعراء وتأملات الأخلاقيين، بصورة مخففة دور أبطال الميثولوجيات القديمة" (موران، روح الزمان (العصاب)، 1995، الصفحات 13-14).

أما الحل الثالث فهو حل استعمال لغة الحوار، وحسن اختيار أدوات التخاطب، فأهم ما يؤنس الإنسان هو اللغة، باعتباره حيوانا ناطقا، إذ هناك من لا يربط الإنسانية بالقدرة على التعقل – كما فعل "أرسطو" – وبالمنطقية، بل ربطها باللغة، ومن بينهم "إدغار موران" الذي يؤكد على علاقة

التكامل والترابط بين اللغة والثقافة، فالإنسان كائن ثقافي لأنه لغوي وكائن لغوي لأنه ثقافي، إذ لا ثقافة دون لغة ولا لغة دون ثقافة، ولن تنمو هذه الملكات الذهنية إلا في وسط تواصل، ف «ما كان للثقافة أن تقوم دون قدرات العقل البشري وما كان للكلام والفكر أن يوجد دون ثقافة» (Edgar M. , La méthode; L'humanité de l'humanité : l'identité humaine, 2003, p. 45).

8. الخاتمة:

انتقد "إدغار موران" الحداثة الغربية القائمة على القطعية والعقل الراديكالي وذلك بالنظر للتناقض الموجود بين أفكارها التنويرية وبين مصدرها، أي الغرب بما يحمله من إرث تاريخي عنيف وحمولة إقصائية، فالحضارة الغربية لم تفلح عبر التاريخ في ترجمة مبادئها الإنسانية والأخلاقية إلى ممارسات عملية لاتساع الهوة بين المفكر والمنظر وبين السياسي والعسكري الذي تعود إليه قرارات تسيير شؤون الدولة، فلما تطورت علميا سيطرت عليها النزعة الآلية والثقافة اللأعقلانية ولم تراع الجوانب الحياتية الشعورية للإنسان ككيان وجداني. ولهذا فقد اعتبر "موران" أن الحداثة أسئ تطبيقها ولم تحقق المراد منها والمأمول من شعاراتها المنادية باحترام الحريات والديموقراطية وأخلقة الدساتير والنظم، وذلك لأنها اتجهت إلى استغلال الضعفاء لمصلحة الأقوياء وقوى الشر في العالم بما يحفظ مصلحة الدول العظمى بنزعة براغماتية وعقل حدي لا يعترف بالآخر إلا في إطار المنفعة، وجعلت هذا الكائن المقدس مجرد آلة ربح وآلية توسع .

وللحد من هذه المخاطر اقترح "موران" عدة حلول لمواجهة أبرزها العودة إلى حقيقة العقلانية كأداة تواصل وتكامل بين العقول على اختلافها والتوجه إلى صناعة الفعل الثقافي بوجه جمالي عالي الإحساس، يقوم على إحياء عاطفة الوجدان والإبداع في مجالات الكتابة والمسرح ومختلف الفنون والعلوم. كل هذا في إطار لغة إنسانية جامعة مركزة على مفردات التسامح وثقافة الكونية.

9. قائمة المراجع:

- Edgar, M. (2012). *La Méthode: Les idées, leur habitat, leur vie, leurs mœurs, leur organisation*. Paris - France: Éditions du Seuil.
- Edgar, M. (2003). *La méthode; L'humanité de l'humanité : l'identité humaine*. Paris - France: Éditions du Seuil.
- Edgar, M. (2000). *Les sept savoirs nécessaires à l'éducation du futur*. Paris - France: Editions du Seuil .
- Edgar, M. (2007). *Où va le monde ?* Paris - France: Editions Carnets de l'Herne.
- إدغار موران. (2002). *تربية المستقبل (المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل)*. (عزيز لزرق، و منير الحجوجي، المترجمون) الدار البيضاء – المغرب: دار توبقال للنشر.
- إدغار موران. (2007). *ثقافة أوروبا وبربريتها*. (محمد الهلالي، المترجمون) الدار البيضاء – المغرب: دار توبقال للنشر.
- إدغار موران. (2022). *دروس قرن من الحياة*. (خليد كدري، المترجمون) الجبيل - المملكة العربية السعودية: صفحة سبعة للنشر والتوزيع.
- إدغار موران. (1995). *روح الزمان (العصاب)*. (أنطون حمصي، المترجمون) سوريا: منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية.
- إدغار موران. *نحو سياسة حضارية*. (أحمد العلمي، المترجمون) بيروت – لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- إدغار موران، و جان بودريار. (2005). *عنف العالم*. (عزيز توما، المترجمون) اللاذقية : دار الحوار للنشر والتوزيع.
- إدغار موران، و حسين شريف. (2001). *تحديات القرن الحادي والعشرين (تواصل المعارف العلمية)*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- زهير الخويلدي، عائشة الخضير، وآخرون. (2013). *خطابات ال "ما بعد" (في استنفاد أو تعديل المشروعات الفلسفية، إشراف وتقديم : د. علي عبود المحمداوي , الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة. الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة.*